**الخلوة الاختيارية في حياة الشيخ عبدالقادر بن سالم الغساني**

ما زلت أتذكر جيدا حالة الصفاء الذهني والروحي التي يعبر عنها الشيخ الجليل الأستاذ عبد القادر بن سالم الغساني عندما كنت أزوره بين وقت وآخر. قضى حياته كلها في التعليم، عاصر عهدين ما قبل النهضة وفجر النهضة وضحاها. ولم يكتف بالتعليم الذي تلقاه في كتاتيب حضرموت اليمن، بل خاض تجربة عصامية في تعليم ذاته بل استطاع أن ينقل نفسه نقله معرفية وفكرية عبر حضوره الدورات التربوية ساعدته كثيرا على مواكبة التقدم والتطور. أقبل يقرأ بنهم في مجالات اللغة والفقه والتعليم، وكان مستمعا جيدا، وفي العشر سنوات الأخيرة من حياته، انقطع كليا للعبادة والتأمل والذكر، حيث تخلى عن كل ما يشغله عن الصعود الروحي وتزكية نفسه، ولم يكتف بذلك، بل بنى مسجدا وخصص بعض أملاكه كوقف وحول بيته القديم إلى مكتبة دار الكتاب، تلك المكتبة التي تستقبل يوميا العديد من الكتاب والمثقفين، وتحولت إلى رواق علم وثقافة وأدب، تستضيف الباحثين وتوفر لهم مناخا من الحرية للحوار، والمناقشة وتبادل الآراء والأفكار.

لقد عاش الشيخ عبدالقادر الغساني متأثرا بتنشئته الصوفية التي تلقاها على يد والده الشيخ سالم السيل ثم على يد شيوخه في حضرموت. عاش زاهدا بالرغم من الثروة التي نجح في جمعها ثم تخلى عنها وانقطع للخلوة اليومية. كان يستيقظ في تمام الثالثة صباحا، ويستمر في التأمل والذكر حتى يسمع آذان صلاة الفجر، يصلي الفجر ثم يواصل خلوته حتى الشروق، وقد دأب على هذا الورد لا يتركه؛ خاصة بعد أن تحرر من تبعات وظيفته كمدير عام للتربية والتعليم بمحافظة ظفار التي كان يعطيها كل وقته، ينتقل بين البوادي والجبال والمدن، تارة في طائرات سلاح الجو وتارة بالسيارة، وكان يحرص على حضور طابور المدارس التي كان يزورها.

كان يصف تجربته في الخلوة مع محبيه وتلاميذه، ولم يكن يتكلم عنها مع أحد آخر، وكنت أستمع إليه مغتبطا وأنا أعيش تجربته من خلال كلماته وما يرتسم على وجهه من غبطة وسرور وهو يعيش حالة الوعي والاستنارة.

عندما أستعيد سيرة حياة هذا المربي الفاضل، أربط فائدة الخلوة والصمت و التقلل من فضول الكلام والاقبال على العمل والكدح ثم يأوي إلى بيته ويقضي بعض الأوقات في العمل اليدوي في مزرعته، وهكذا عاش، وهذا ما ساعده على أن يعيش حتى عمر الست والتسعين عاما، وأذكر أحد أبناء إخوانه عندما وقف في تأبينه أنه حرص أن يقرأ على الناس أسلوب الحياة الذي ساعده أن يعيش حياة مثمرة وبناءة وحافلة بالإنجاز.

أدركت لاحقا أن الشيخ عبدالقادر الغساني وبدون أن يقصد أو يتكلف عاش تلك الحياة المتزنة من غير إسراف أو صخب، محققا التوافق بين العمل الجاد وبين الصمت والخلوة؛ فاستطاع أن يحقق كثيرا من الخير الذي بقي بعد رحيله. كان الرجل متحررا من الأنا الشخصي، فلم يرض أن يسمى تلك الأوقاف الخيرية باسمه، ولم يخبر بها أحدا، بل ظهرت فجأة وبهدوء وبدون مباهاة.

كان منهجه في الخلوة بسيطا وعمليا ويستطيع كل شخص أن يطبقه بهدوء وبساطة، ينام الرجل مبكرا غالبا في تمام التاسعة أو العاشرة مساء، ثم يستيقظ في الساعة الثالثة صباحا، فيصلي النفل ويختم بالوتر، ثم يجلس يقرأ القرآن والأذكار حتى يسمع الأذان. وبعد ذلك يصلي صلاة الفجر يبقى جالسا على سجادة صلاته حتى وقت الشروق؛ فيصلي نافلة الشروق، ثم يرقد قليلا وبعد ذلك يستيقظ ويباشر عمله، يتفقد أملاكه، في شركات الاستثمار، ويستمع إلى تجارب الشباب في مجالات الحياة المختلفة، فيجدد بذلك معارفه، ويعيش حالة( اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد).

د. أحمد بن علي المعشني

رئيس أكاديمية النجاح للتنمية البشرية